ملامح الأدب الشعبي ودوره في المقاومة الوطنية والثورة التحريرية الجزائرية

Features of popular literature and its role in the national resistance and the Algerian liberation revolution.

الدكتورة: عالم مليكة

m.alem@univ-dbkm.dz

جامعة خميس مليانة -عين الدفلى – (الجزائر)

الملخص:

يعتبر الشعر الشعبي مرآة عاكسة لحياة الجماهير، حيث كان له دور هام خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، يصور واقع البلاد تصويرًا بالغا بكلمات بسيطة شاعرية وبأنغام عذبة تتميز بالروح الوطنية، كما يعد أحد أشكال التعبير في الأدب الشعبي، بل هو وسيلة إعلام الأمة يعكس واقعها على حقيقتها، وهو صادق من النفس الصادقة والعاطفة الجياشة ونابع من واقع الشعراء بحيث يعيشون ألم وآمال شعوبها بعفوية ويتداول الناس هذه أشعارهم في مجالسهم مشافهة، مما يجعله أحد مصادر التدوين التي تمزج بين التاريخ والأدب.

الكلمات المفتاحية: الأدب الشعبي، المقاومة، الثورة، الروح الوطنية، التاريخ.

Abstract:

Popular poetry is a mirror that reflects the lives of the masses, as it played an important role during the period of the French occupation of Algeria. Its truth, which is sincere from the sincere soul and passionate emotion and stems from the reality of poets so that they live the pain and hopes of their peoples spontaneously and people deliberate these poems in their gatherings verbally, which makes it one of the sources of blogging that mixes history and literature.

Place the abstract here (in the abstract, the goal and significance of the research are indicated within 100 words) Place the abstract here (in the abstract, the goal and significance of the research are indicated within 100 words) Place the abstract here (in the abstract, the goal and significance of the research are indicated within 100 words)

Key words*: Popular literature; Resistance; revolution; Patriotic spirit; history.*

*** *** ***

مقدمة:

يعد الأدب الشعبي أحد الفنون الأدبية واللغوية، وهو شكل من أشكال التعبير الشفوي الذي وصفه الدارسون والباحثون بالإبداع الشعبي الشفوي، كما يعد أحد الأنماط الثقافية الشعبية كباقي الفنون الشعبية الأخرى، ومن أجل التعرف على ماهية الأدب الشعبي من خلاله تعريفه اللغوي والاصطلاحي، من حيث هو أدب وعلاقته بالتاريخ خاصة ما تعلق بتاريخ المقاومة والثورة التحريرية (ثورة الفاتح من نوفمبر 1954)، يجدر بنا طرح الاشكال التالي: ماهي مجالات اهتمامات الأدب الشعبي، فروعه وأصنافه ؟ ما مدى مساهمته في الكتابة التاريخية لتسجيل مآثر الجزائريين خاصة مرحلة المقاومة الشعبية والثورة التحريرية ؟

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة وللوقوف على أهمية الموضوع وجب علينا التعريف بماهية

الأدب الشعبي ومجالاته المختلفة، وعلاقته بموضوع الدراسة من خلال عرض الملامح العامة للأدب الشعبي شعرا ونثرا ودوره خلال فترة المقاومة والثورة التحريرية والتعريج على بعض الأبيات الشعرية التي قيلت عن الثورة وزعمائها على غرار مقاومة الأمير عبد القادر بوعمامة

على سبيل المثال لا الحصر، وكذا أبيات عن انطلاق الثورة وأخرى عن الاستقلال والحرية.

1. ماهية الأدب الشعبي:

فالأدب الشعبي هو مصطلح يقابل مصطلح الفلكلور عند الغرب، إذ أن هذا الأخير يستعمل للتعبير عن الملكات الخلاقة التي تصدر عن شخصية فردية، وبخاصة في المجالات التي يتوسل فيها بالكلمة المجهورة أو الشفاهية، وهو يتألف من الحكايات والأغاني والأمثال وبعض الظواهر التمثيلية وغيرها، مما يدخل في مجال الآداب الشعبية. ومصطلح " فلكلور" من المصطلحات التي تدل على المأثور الشعبي والثقافة الشعبية كما يشير التلي ابن الشيخ في كتابه " منطلقات التفكير في الادب الشعبي" إلى أن هذا المصطلح هو مركب من كلمتين فولك (folk) وتعني قوم أو شعب، ولور(lore) وتعني المأثور الشعبي أو الثقافة الشعبية، والجدير بالذكر أن هذه التسمية — الفلكلور- قد انتقلت إلى اللغة العربية ضمن التأثيرات الثقافية التي وفدت من الغرب ولا يزال يستخدمه العديد من الكتاب العرب ولاسيما الصحافة والاذاعة والمسرح ما أدى إلى انتشار المصطلح وتداوله في الوطن العربي." فالوعي بالدراسات الشعبية كان من اهتمامات الغرب منذ القديم ما جعلهم يهتمون بجمع مادة التراث الشعبي والعناية بها وتحديدها وتعريفها.[1]

يعد مصطلح الأدب الشعبي غربي الأصل عربي النشأة، فهو مصطلح مركب من كلمتين — أدب-و - شعب- أما الأدب فهو مفهوم عام ذو معاني عديدة وآفاق واسعة فهو "ذلك الكلام الفني الجمالي رفيع المستوى من شعر او نثر صادر عن أديب

كاتب أو شاعر، وخاضع لمنطق لغوي فني معين". [2] بينما تحيلنا كلمة الشعبي والمشتقة من " الشعب " الذي يعيش في إقليم متعدد ومنفرد، تجمعه خصائص مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد ويشير المصطلح في نفس الوقت إلى مفهومين مختلفين:

أ-جمهور أو عدد وافر من الناس: ينتمون إلى بلد واحد، ويخضعون للقوانين نفسها، أو بالتعميم مجموع الناس الذين يشتركون في علامة مماثلة الدين الدولة الأصل الأرض.

ب- فريق من الأمة: المعتبر على النقيض من الطبقات الأخرى، حيث تتوفر إما الزيادة في الثروة وإما الزيادة في المعرفة.[3]

ترى نبيلة ابراهيم أن "الأدب الشعبي ينبع من الوعي واللاشعور الجمعي"[4]. فالعادات والتقاليد والمعتقدات المنتشرة في أي منطقة وأي أمة إنما هي مستمدة من موروثها الشعبي، والذي لم ينشأ بدوره إلا من ذات الشعب، وتقول في موضع آخر: " عندما ننطق بعبارة الأدب الشعبي، أو التراث الشعبي، فإننا على وعي تام بأننا نعني نتاج جماعة بعينها وليس الشعب بأسره" [4] ، فالأدب الشعبي هو نتاج فرد أو مجموعة من الأفراد التي تجتمع لتؤلف حكاية أو مثلا أو لغزا أو غير ذلك، فهذا الأخير إذن هو ذاكرة الشعوب ومرآتها التي تعكس بكل صدق ماضيها ووعيها الشفوي بكل ما ينطوي عليه من تقاليد وعادات وطقوس دينية واجتماعية.

اهتم النقاد والمختصون بمصطلح الأدب الشعبي فحاولوا أن يقدموا تعريفا شاملا وموحدا له، إلا أن الآراء النقدية تعددت لأسباب عديدة منها:

طبيعة المادة الشعبية، فالمادة الشعبية في حركة دائمة، تحمل رموزا ودلالات مختلفة قابلة للزيادة أو النقصان حسب الظرف والعصر الذي قيلت فيه.

رؤية كل باحث أو دارس، فهناك من يولي كل الأهمية للمضمون وهناك من يركز على الشكل، وآخر يأتي فيجمع بينهما.

غنى مادة الأدب الشعبي فهو يشمل كل المجالات الفكرية من أدب وتاريخ وعلم النفس والاجتماع وغيرها ما سمح بتعدد التعاريف. فهناك من يعتبر أن الأدب الشعبي هو ذلك الأدب المتناقل شفاهة لا كتابة، فهو عامي التعبير، تقليدي النشأة، مجهول المؤلف وشفاهي مقابل الأدب الرسمي، "فالأدب الشعبي لأي مجتمع من المجتمعات الانسانية هو أدب عاميتها التقليدي والشفهي، مجهول المؤلف المتوارث جيلا عن جيل" ، وهناك من يركز على الجانب اللغوي فإذا كانت اللغة المستعملة لغة أدبية فصيحة فهي تنتمي إلى الأدب الفصيح أو الرسمي وإذا استعملت لغة عامية بسيطة فهي من الأدب الشعبي، وهناك من اهتم بمحتوى الأدب لا شكله حيث يقول عز الدين جلاوجي: " الأدب الشعبي هو أدب الشعب، المعبر عن مشاعره وأحاسيسه، والممثل لتفكيره واتجاهاته ومستوياته الحضارية، المتداول بين أفراده، البسيط في لغته وصوره، سواء أكان مرويا شفاهيا، أو مكتوبا معروف المؤلف أو مجهوله."

2-مجالات اهتماماته :

يعرف الأدب الشعبي على أنه ذلك الأدب الذي يكتب بلغة عـــامية، قريبة من أفواه الشعب وأحـــاديثهم اليومية التي يتداولونها فيما بينهم، وهو الأدب الذي يستغرق مظاهر الحياة الشعبية، قديمها وحديثها، حاضرها ومستقبلها ويصورها تصويرا دقيقا، فيعبر عن احتياجاتهم ووجدانهم ومشـاعرهم واهتماماتهم، وحول ماهية الأدب الشعبي يقول : " لا أظن أحدا يعارض في أن الصورة الصافية الدقيقة للأدب الشعبي هي التي تضم الأدب الذي يعبر عن مشاعر الشعب وأحاسيسه ، فالأدب الشعبي إذن هو الأدب الذي يصدره الشعب فيعبر عن وجدانه ويمثل تفكيره ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية".[5]

يتضمن الأدب الشعبي الشعر والغناء والأحاجي والقصص والمعتقدات وغيرها ...، كما يضم مجموعة من الفنون القولية التي تتمثل في الأمثال الشعبية والأغاني والحكايات الشعبية، والأغاني الشعبية وأهازيج الطقوس الدينية والألغاز والأسطورة والأمثال والنكت ...[6]

ويتربع الشعر الشعبي على رأس هذه الفنون الأدبية الشعبية، باعتباره الأدب الشائع في الطبقات التي تسمى عادة بالشعب، وله مميزات خاصة به في بعض الأحيان ومتشابهات مع الأدب الكلاسيكي، حيث تستعمل اللهجة المحلية أو اللغة شبه الفصيحة التي تستعمل فيها كلمات سهلة تضم تعابير كثيرة باللغة العامية.[7]

فالدارس للأدب الشعبي يرى أنه أدب شاسع شمل كل جوانب الحياة من الديني أو العقائدي الى الاجتماعي فالسياسي والتاريخي، من خلال المديح النبوي والتصوف والسرد القصصي وغير ذلك، لما له من بساطة في الطرح وبلاغة في الاقناع، فالشاعر الشعبي يتخذ من القضايا التي يعيشها مجتمعه موضوعا بارزا في أشعاره فيعبر عن مجمل آمالهم وآلامهم بطريقة شفاهية وبلغة عامية بليغة ومؤثرة، شأنه في ذلك شأن الشعر العربي الفصيح.

ويتكون الشعر الشعبي من شقين هما:

الشعر هو أقدم الفنون الأدبية: يعني في الأصل (علم) شعرت به بمعنى علمت به، ومن شعر يكون الشاعر بمثابة العالم[8].

والشعر هو كل نص نتج عن نبض شعوري في قالب لغوي موسيقي سليم وحرك خيال في المتلقي.[9]

الشعبي: هي الكلمة الثانية لتخصص الكلمة الأولى وتحصرها في نطاق الشعب، وهي صفة مشتقة من الإسم الموصوف(الشعب).

ويحيلنا ذلك إلى مفهومين مختلفين:

مجموع الناس يشتركون في علامة مماثلة.

فريق من الأمة المعبر عن نقيض من الطبقات الأخرى.

3. مقومات الشعر الشعبي وخصائصه الفنية:

من خلال بحثنا هذا استخرجنا بعض الخصائص الفنية التي تميز بها الشعر الشعبي ويمكن تلخيصها فيما يلي:

الإبداع الشعبي التقليدي بمعنى أن الشاعر ينفتح على الذاكرة البشرية وفق مجموعة من القوانين.

التراثية في الموضوع يقصد بها الفطرية اللامنطقية في السرد والربط بين الأحداث.
اللغة والأسلوب هي بمعنى على الشاعر الشعبي أن يكون فنانا يعتمد على موهبته ويجعل عنوان الرمز من قصائده وللهرب من كل القيود والتخلص من كل الرقابات لأن واقعنا عبر الفنانين هو الصور ولذلك أرونا أن يتحول واقعنا إلى صور ورموز يجب أن يمر عبر الفنان.[10]
الخيال بمعنى أن هناك علاقة قوية بين الخيال والصورة التي يتخيلها الشاعر فالصورة هي أداة الخيال ووسيلته، ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فعاليته ونشاطه.[11]

4. ملامح الأدب الشعبي ودوره في المقاومة الوطنية والثورة التحريرية:

وقد حظي الأدب الشعبي في الجزائر باهتمام واسع من قبل الدارسين والباحثين والمهتمين بهذا النوع من الأدب، حيث كان له الأثر البالغ خلال المقاومات الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، اذ لم يكن أقل أهمية عن الأدب الفصيح، وعلى الرغم من أن أقلاما جزائرية كثيرة تناولت موضوع المقاومة الوطنية والثورة التحريرية، إما في الدراسات التاريخية وهو كثير، وإما في الدراسات الأدبية وهي قليلة جدا حسب آراء الكثير من الباحثين والدارسين، الا أن بعض الدارسين تناولوا الموضوع بالمزاوجة بين التاريخ من حيث هو فعل وحدث ، وبين الأدب من حيث هو خيال و تصوير، وفي هذا اخصاب لمادة جديدة من الكتابة [12] ، حيث كتبت العديد من الأشعار الشعبية حول زعماء المقاومة الوطنية على غرار ما كتب حول مقاومة الأمير عبد القادر والتغني بالانتصارات التي كان يحققها على الفرنسيين مثل ما جاء في أشعار الطاهر بن حوا، وقدور بن محمد [13] ، وكذا وجود أشعار ونصوص شعرية شعبية وعامية تمجد مقاومة بوعمامة وترثيه بعد استشهاده[14] .

ما فتئ الأدب الشعبي يرصد حياة الأمة ويتابعها ، ويعبر عن ذهنيتها فيبرع في وصفها ، ويرسم آمالها فيصدق في رسمها ، ويصور أتراحها فيبدع في تصويرها ....، فالصدق حسب المهتمين من الدارسين والباحثين في هذا النوع من الأدب هو السمة الغالبة على مضمونه ، فهو التعبير الصادق الناصع المعبر عن الحياة في بساطتها وتلقائيتها ، وعفويتها وواقعيتها ، لذلك تراه يتجاوب مع الأحداث الكبرى في التاريخ فيسارع الى تسجيلها ، بل يبادر الى تخليدها على حد قول أحدهم ، وكثيرا ما يتجلى الأدب الشعبي في شكل ملاحم ، وهو أسرع الى التغني بالبطولات وسير العظماء ... [15]،

كما لعب الشعراء الشعبيين دورا كبيرا في بث الوعي الوطني في نفوس أبنائه، فقد خلد هؤلاء الكثير من الأحداث الوطنية على غرار مجازر ماي 1945، التي صوروا فيها آلام الشعب ومآسيه.

أما الشعر الشعبي الثوري فقد اتسم بطابعه الشمولي بوصفه للجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ابان الاحتلال الفرنسي الذي كان يهدف الى طمس معالم الثقافة الجزائرية، فكان سبيل الشاعر عن طريق الكلمة لمؤازرة اخوانه والمشاركة في التصدي للعدوان الاستعماري الصليبي والحث على مواجهة سياسات الاحتلال القمعية التعسفية [16] .

ولتبليغ رسالة الجهاد المقدسة اتخذ الشاعر الشعبي من الأسواق والبوادي والأرياف ميدانا للتعبير عما تجود به قريحته من نقل للآلام والمآسي التي يعيشها الشعب، كما يتخذ أحيانا من الألغاز وسيلة للتوعية والتوجيه، ولم يقتصر دوره فقط على نظم القصائد بل في كثير من الأحيان كان يحمل السلاح ويشارك اخوانه المجاهدين في المعارك، أما سلطات الاحتلال فكانت تنظر اليه بعين الاحتقار وتعتبره مجرد دجال ومشعوذ ...

أصبح الشاعر الشعبي أو المداح أو القوال كما يطلق عليه، يمثل ذاكرة الشعب الحية الشفوية كما كان له الفضل في نقل الحقيقة التي تناقلتها الأجيال وتغنت بها حناجر الشعراء ورددها الشعب في مختلف ربوع الوطن.

وتستوقفنا في هذه المواقف بعض القصائد الشعبية حول الثورة التحريرية حيث تغنى بعض شعراء الاستقلال بمآثر الثورة وانجازاتها نظرا لقيمة الثورة في عيون الجزائريين، بكل تجلياتها من أحداث وأمكنة وأزمنة، ولا يغيب عن الشاعر الافتخار بهذا المنجز التاريخي العظيم، فنراه يتغنى بثورته شعريا ومن ذلك قصيدة "دموع وشموع" للشاعر أحمد بن زيان الذي يقول فيها:

ذيك الثورة جراحها
تبقى مرجع
في العالم مزال طلعتنا طلعة
احنا الشعب كريم
مطبوع بطابع
والأمير على طبعة هذه الطبعة
طبعنا بالميثاق
والقلب الواسع[17]

ومثلما تحدث الشعراء عن الثورة بانطلاقتها ذات يوم من نوفمبر 1954، وأحداثها البطولية، وجيشها البطل المقاوم فقد تحدثوا أيضا عن الشهداء بوصفهم أبطال ضحوا بالنفس والنفيس من أجل أن تحيا الجزائر والوطن.

وتندرج هذه القصائد ضمن الشعر الثوري التحرري الذي يرمي منه صاحبه تخليد الثورة التحريرية وتمجيدها، من خلال بطولات رجالاتها قادة وثوارا ومقاومين، والتأكيد على قداستها وصقلها في أذهان الجزائريين.

كما تخلد هذه القصائد المنظومة في أغلبها انطلاقة الثورة التحريرية وانتفاضة الشعب ضد الاحتلال وتجسد المعاناة التي عاشها الشعب الجزائري طيلة السنوات السبع ونصف العجاف من عمر الثورة حتى نيل الاستقلال.

وتعبر كلمات القصائد الثورية في مجملها عن نفسية صاحبها، فتتميز فيها كلمات الشاعر البسيطة التي تعبر عن فكره وحياته ومن يجلس إليه وهو يلقي شعره، وليس بمقدور أي كان أن يشكك في صدق عاطفته كونه شاعرا عايش مرارة الاستعمار، ومن ينتشي ببزوغ شمس الحرية ويعيش أسعد لحظات عمره مبتهجا فرحا بالاستقلال، إذ تلامسه أشعة شمس الحرية الدافئة وتغطي بنورها الأرض بما رحبت، مما يؤكد صدقه وصدق

مشاعره، ومن ذلك في بعض الأبيات الي تصف تلك المعاناة والآلام:

تسمع في اليتيم يبكي في كل نهار
حفيان عريان كرشو خويان

وفي بيت آخر تجسيد للفرحة من النصر وتمثيله بضياء الشمس

شمس الحرية ضوات على الأسوار
عندنا فرحانين أحنا ونسبانا

البيت يصور لنا فرحة الجزائريين واحتفالهم وابتهاجهم بإعلان استقلال الجزائر، وتخلصهم من بطش الاستعمار وظلمه.

كثيرا ما يستعمل الشاعر الشعبي الرمز الطبيعي باستعماله لمفردات من الطبيعة يرمز بها إلى الحالات الانفعالية التي يعيشها هو وشعبه يرمز إلى الثورة (بدر البدور).

الرمز التراثي: تتعدد الرموز في هذا النوع من الشعر نظرا لتشبع الشاعر بتراثيات مجتمعه والقصيدة الإسلامية كالثورة، الشهداء، الكفاح، الموت، الرحمة النجمة والهلال.

كما يستخلص الشاعر الشعبي من خلال قصائده توظيفه للرموز والألغاز الداعية الى محاربة الاحتلال بداية خاصة الثورية منها كثورة أول نوفمبر 1954م التي انتهت بالاستقلال ونهاية حقبة مظلمة من الاحتلال.[18]

5. الخاتمة:

يبقى الأدب الشعبي أحد أصناف التراث الوطني والأمة الجزائرية، يسهل تخزينه في الذاكرة، كما يسهل على جمهوره روايته وتداوله في مختلف المناسبات والمجالس شفويا.

ومن ثم يمكن له المساهمة في كتابة أو تدوين التاريخ الوطني الذي لا يزال الشغل الشاغل للمؤرخين باعتباره شهادة حية يمكن استغلالها في اطار المصادر الشفوية المسجلة وغير المسجلة ، حيث أولت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال عناية فائقة لتسجيل مآثر الجزائريين من أقوال وأمثال شعبية الى جانب الكتابات المختلفة الأدبية منها والتاريخية التي لا تزال بكرا وتحتاج الى الكثير من المصادر على غرار هذا الصنف من الأدب ، وليكون له دور في تدوين التاريخ الوطني في ظل عياب الأرشيف الوطني الذي لا يزال حبيس أدراج المراكز الفرنسية ، اذ لا تزال الحاجة الى هذه الى الأصناف من الأدب التي تمثل التزاوج بين التاريخ والأدب ومنه الأدب الشعبي شعرا ونثرا.

---

[1] التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي في الثورة (1830-1945) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص71.

[2] سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، سلسلة دروس جامعية (آداب)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص9.

[3] كهينة قاسمي، الامثال الشعبية بمنطقة المهير -دراسة تاريخية وصفية-، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة المسيلة، 2009 ص10

[4] نبيلة ابراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص3.
[5] حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ، لبنان، الطبعة الثانية، 1980، ص11.
[6] مجلة التراث الشعبي العراقية، 6نيسان 1989، ص 182.
[7] نفس المرجع، ص182.
[8] ابن منظور، لسان العرب، ص196.
[9] أيمن البلدي، في الشعر والشاعرية، ج1، 2003، ص10.
[10] ميخائيل، الأدب هو قضايا العصر، مجموعة مقالات نقدية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد، 1981، ص36.
[11] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص14.
[12] عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) ، رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري ، ج1 ، مطبعة دار هومة 2013 ، ص 3 .
[13] محمد بلقاضي، الكنز المكنون في الشعر الملحون، ص ص 54 -100.
[14]عبد القادر بن البشير خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة ص 647
[15] مرتاض، مرجع سابق، ص 81 -82.
[16] للمزيد أنظر: جلول يلس وأمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 19.
[17] أحمد بن زيان، قصائد للثورة والوطن، منشورات الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، الطبعة1، 2012، ص97.
[18] عبد المالك مرتاض، المعجم الموسوعي للثورة التحريرية، و.م.ج، 1973م، ص207.